الفصل الثانى

وسطية القرآن

فى باب توحيد الله

وأسمائه وصفاته

الفصل الثانى
وسطية القرآن فى باب توحيد الله وأسمائه وصفاته

تمهيد: إن المتأمل فى كتاب الله تبارك وتعالى، وما جاء فيه عن دعوات الرسل وما أنزل عليهم من الكتاب ليخرج بحقيقة واحدة، أطبق عليها جميع الرسل، وأنزلت بها جميع الكتب السماوية، هذه الحقيقة هى: الدعوة إلى توحيد الله وعبادته دون سواه، فهى أسس الرسالات وعمودها الفقرى، وهى القاسم المشترك بينها، وإن اختلفت بعد ذلك الشرائع والمناهج، فما من نبى أرسل ولا كتاب أنزل إلا وكان أول ما يدعو إليه : هو توحيد الله تبارك وتعالى.

يقول الله عز وجل فى تقرير هذه الحقيقة: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[النحل : ٣٦] وفى آية أخرى يقول سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾. [الأنبياء: ٢٥].

وإذا استعرضنا القرآن الكريم فى حديثه عن رسل الله عليهم الصلاة والسلام نجد أن كل رسول قال لقومه: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾. [المؤمنون: ٢٣، والأعراف: ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥]. ابتداء من أولهم نوح عليه السلام، وانتهاء بخاتمهم نبينا محمد ﷺ.

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام دينهم واحد، وهو الإسلام وشرائعهم مختلفة كما قال المصطفى ﷺ: « أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد »(١).

قال الحافظ ابن حجر: (ومعنى الحديث: أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد

---

(١) أخرجه البخارى: كتاب أحاديث الأنبياء، باب (واذكر فى الكتاب مريم): ٦ / ٤٧٨ .

وإن اختلفت فروع الشرائع، وقيل: المراد أن أزمنتهم مختلفة) (١).

وقال الحافظ ابن كثير فى معنى الحديث: (أى القدر المشترك بينهم وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم) (٢).

لقوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ . [المائدة: ٤٨].

وكل الأنبياء أخبروا بأنهم مسلمون ودعوا قومهم للإسلام؛ لأنه الدين الحق الذى لا يقبل الله غيره: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ . [آل عمران: ١٩] ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وهذا يدل على أن دين جميع الأنبياء واحد، وهو الإسلام ودعوتهم واحدة وهى الدعوة لتوحيد الله عز وجل، وإفراده بالعبادة، على هذا مضى رسل الله والمسلمون من أممهم، ولكن قومهم غيروا وبدلوا بعدهم، وحرفوا وأدخلوا فى دين الله ما لم يأذن به الله، وشمل التحريف والتبديل أساس دعوة الرسل، وهو التوحيد. وما يتعلق بذات الله عز وجل من الأسماء والصفات، فتفرقت الأمم فى ذلك ما بين مفرط، ومفرط، وغال ومقصر؛ لإعراضهم عن هدى المرسلين واتباعهم غير سبيل المؤمنين.

ومن أعظم الأمم اختلافا وضلالا فى هذا الباب: أمتا اليهود والنصارى، فاليهود غلب عليهم التقصير والتفريط والجفاء، وإن كان لديهم غلو وإفراط، والنصارى غلب عليهم الغلو والإفراط وإن كان وقع منهم تفريط وتقصير فى جوانب. والمسلمون اتبعوا الرسل، فهدوا لأقوم السبيل، فكان قولهم هدى بين ضلالتين، وحقا بين باطلين، فهو كلبن سائغ يخرج من بين فرث ودم. وإليك البيان فى ما ذهبت إليه كل من هذه الأمم الثلاثة فى هذا الباب (٣).

---

(١) فتح البخارى: ٦/٤٨٩.

(٢) تفسير ابن كثير: ٧/١٨٣.

(٣) وسطية أهل السنة بين الفرق: (٢٤٢، ٢٤٣).

المبحث الأول
موقف أمة اليهود

عرفنا مما تقدم أن أمة يهود، أمة غلب عليها طابع التفريط والتقصير فى هذا الباب، بل هو الغالب عليهم فى أكثر الأبواب.

ولعل من أبرز مظاهر تفريطهم وتقصيرهم فى هذا الباب أمرين:

الأول: اتخاذهم الأنداد لله عز وجل، وعبادة الأصنام.

والثانى: إغراقهم فى تشبيه الخالق بالمخلوق، ووصف الله عز وجل بالنقائص التى لا تليق إلا بالمخلوق.

فأما الأمر الأول: وهو اتخاذهم الأنداد وعبادة الأصنام، فإن القوم لما أنقذهم الله من عدوهم فرعون وجنوده، وجاوز بهم البحر مع موسى عليه السلام، وأغرق عدوهم على مشهد منهم، ومروا على قوم يعكفون على أصنام لهم، مالت نفوسهم إلى الوثنية وطالبوا موسى عليه السلام أن يجعل لهم مثلها، يقول الله جل وعلا فى ذلك: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾. [الأعراف: ١٣٨] ثم بين لهم موسى عليه السلام ضلال أولئك وبطلان عملهم، وأن الإله الحق هو الله الذى فضلهم على العالمين فقال: ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾. [الأعراف: ١٣٩، ١٤٠].

١ ـ اتخاذهم العجل فى زمن موسى:

لم يلق نصح موسى عليه السلام وتذكيره ووعظه من القوم قلباً واعياً أو أذناً صاغية، فما أن تركهم عليه السلام وذهب إلى ربه يناجيه، حتى اتخذوا العجل من بعده إلها من دون الله قال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾. [الأعراف: ١٤٨] ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ

مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ . [البقرة: ٥١] ثم بين تعالى من تولى كبر إضلالهم وصناعة العجل لهم، فقال: ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾ . [طه: ٨٥ - ٨٨].

فبين تعالى أن الذى عمل لهم العجل هو السامرى، ومن العجيب أن كتاب العهد القديم ينسب هذا العمل الشنيع إلى هارون عليه السلام كما جاء فى (سفر الخروج) (١). ولقد تكرر من القوم اتخاذ الأصنام وعبادتها بعد موسى عليه السلام.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله: (وأهل الكتاب معترفون بأن اليهود عبدوا الأصنام مرات...) (٢).

وفى كتاب العهد القديم، إشارات كثيرة لعبادتهم الأوثان والأصنام، من ذلك:

١ - ما جاء فى (سفر الملوك الثانى) عن عودتهم لعبادة العجل فى عهد رحبعام (٣) يقول السفر: (.... وعمل عجلى ذهب وقال لهم: كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم هو ذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر ووضع واحد فى بيت أبل، وجعل الآخر فى دان) (٤).

٢ - عبادتهم الأفعى وبعض التماثيل:

يذكر (سفر الملوك الثانى) عن الملك حزقيال أنه: (أزال المرتفعات وكسر التمايثل وقطع السوارى وسحق حية النحاس التى عملها موسى، لأن بنى إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها...) (٥).

على أن موسى عليه السلام لم يعمل تمثالاً نحاسياً لحية، وإنما كانت عصاه

---

(١) انظر: العهد القديم، سفر الخروج إصحاح ٣٢ فقرة: ١ - ٦ .

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ٣ / ٢٤٧ .

(٣) هو رحبعام بن سليمان عليه السلام ملك بعد أبيه.

(٤) سفر الملوك الأول، إصحاح ١٢ فقرة: ٢٨ ، ٢٩ .

(٥) إصحاح ١٨ - فقرة: ٤ .

تنقلب إلى حية تسعى معجزة له ثم تعود سيرتها الأولى بعد ذلك عصاً يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه، لكن لعل بنى إسرائيل عملوا ذلك ونسبوه إلى موسى عليه السلام لتروج عند الناس ويعظموها ويعبدوها.

وأما الأمر الثانى: وهو قولهم بالتشبيه ووصف الخالق بصفات المخلوق.

وهذا أمر مشهور عنهم، حتى عده الشهرستانى [١] من طباعهم الملازمة لهم، فإن القوم أسرفوا فى تشبيه الله عز وجل بالمخلوق ووصفوه جل وعلا بالنقائص التى تختص بالمخلوق.

ولقد سجل عليهم القرآن الكريم صوراً من ذلك، وكتابهم الذى بين أيديهم ينضح بالكثير من ذلك، ونحن نذكر فيما يلى نماذج من أقوالهم التى شبهوا فيها الخالق عز وجل بخلقه.

١ ـ فمن ذلك: (وصفهم الله بالفقر).

وهو صفة لا تليق بخالق البشر، ولكن القوم لا عقول لهم ولا حياء عندهم، يقول عز وجل فى ذلك: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. [آل عمران: ١٨١].

٢ ـ ومن ذلك: (وصفهم له بأن يده مغلولة).

قال عز وجل ذاكراً قولهم هذا: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾. [المائدة: ٦٤].

٣ ـ وصفوه بأنه: (يحزن، ويندم على أفعاله) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

يصفه (سفر التكوين) بذلك فيقول: (ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم، فحزن الرب أنه عمل الإنسان الذى خلقه الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأنى حزنت أنى عملتهم)[٢].

---

(١) انظر: الملل والنحل ١/ ١٠٦، هو أبو الفتح محمد عبد الكريم توفى ٥٤٨ هـ.

(٢) إصحاح ٦ فقرة: ٥ ـ ٨

٤ ـ ووصفوه: (بالتعب والاستراحة) تعالى عن ذلك.

جاء فى (سفر الخروج): (أذكر يوم السبت لتقدسه، ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك، لا تصنع عملا أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك، وترياك الذى داخل أبوابك، لأن فى ستة أيام صنع الرب الأرض والسماء والبحر وكل ما فيها، واستراح فى اليوم السابع لذلك بارك الرب اليوم السابع وقدسه) (١). وفى سفر (التكوين): (فأكملت السماوات والأرض وكل جندها وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل واستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل) (٢).

٥ ـ وقالوا: (بأنه إنسان وصارع يعقوب عليه السلام إلى الفجر).

ففى (سفر التكوين): (فبقى يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب فى مصارعته معه، وقال: أطلقنى لأنه قد طلع الفجر، فقال: لا أطلقك إن لم تباركنى فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب، فقال: لا يدعى اسمك فى ما بعد يعقوب بل إسرائيل؛ لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت... فدعا يعقوب اسم المكان فينئيل قائلاً: لأنى نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسى) (٣).

٦ ـ ووصفوه بما يفيد أنه: (لا يعلم الغيب ويحتاج علامات يميز بها بنى إسرائيل من غيرهم، فوضع الدم علامة على بيوت بنى إسرائيل ليميزها عن بيوت المصريين حتى لا يهلكهم). ففى (سفر الخروج): (أن الرب كلم موسى عليه السلام وقال له فيما قال: فإنى أجتاز فى أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكر فى أرض مصر من الناس والبهائم، وأصنع أحكاما بكل آلهة المصريين أنا الرب، ويكون لكم الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها فأرى الدم وأعبر عنكم فلا

---

(١) إصحاح ٢٠ فقرة ١ ـ ١٧.

(٢) إصحاح ٢ فقرة ١ ـ ٢.

(٣) إصحاح ٣٢ ـ فقرة ٢٤ ـ ٣٠.

يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر) [١].

٧ ـ أنهم جعلوا له أبناء كما أن للمخلوق أبناء.

جاء في (سفر التكوين) : (وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا) . [٢]. وحكى الله عز وجل عنهم أنهم جعلوا له ابناً فقال: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ . [التوبة: ٣٠] .

(١) سفر الخروج، إصحاح ١٢ فقرة ١٢ – ١٣ .

(٢) إصحاح ٦ فقرة ١ ـ ٢ .

المبحث الثانى
موقف النصارى

لقد ضلت أمة النصارى فى هذا الباب ضلالاً بعيداً، ولعل أمة من الأمم لم تضل فى دينها وربها وإلهها كما ضل الذين قالوا إنا نصارى. ولا عجب فالضلالة صفتهم المميزة لهم، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ فى قوله: «اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال»(١). قال فى تفسير قول الله عز وجل: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. [الفاتحة:٧] ولعل من أعظم ضلالهم فى باب توحيد الله وصفاته أنهم:

١ ـ شبهوا المخلوق بالخالق:

وأضفوا عليه من الصفات والخصائص ما لا يليق إلا بالله عز وجل، ولا يصلح إلا له سبحانه فوصفوا المخلوق بصفات الخالق المختصة به، فقالوا: (إنه يخلق، ويرزق، ويغفر ويرحم، ويتوب على الخالق ويثيب ويعاقب)(٢) وهذه الصفات من خصائص الربوبية، وصفات الألوهية التى لا تكون إلا لله سبحانه.

وذلك أن هذه الأمة الضالة، جعلت المسيح عليه السلام هو الله، كما ذكر الله عز وجل قولهم هذا وكفرهم به فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...﴾. [المائدة:١٧] وتارة جعلوه ابناً لله سبحانه وتعالى عما يقول المبطلون، وعن قولهم هذا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾. [التوبة:٣٠].

وقالوا تارة أخرى: إنه شريك لله وجزء من ثلاثة يتكون منها الإله كما ذكر الله قولهم هذا وكفرهم به أيضاً فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ

---

(١) الترمذى: كتاب التفسير، باب من سورة الفاتحة: ٥/٢٠٤.

(٢) الوصية الكبرى، لابن تيمية: ٤.

إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ . [المائدة:٧٣] فألهوا المسيح عليه السلام وجعلوه شريكاً لله، وعبدوه من دونه، بل وصفوه بأخص صفات الألوهية والربوبية من الخلق والرزق والإحياء، والإماتة، وبذلك فاقوا عباد الأصنام والأوثان الذين قالوا في معبوداتهم:﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ . [الزمر:٣] ولم يضيفوا إليها شيئا من خصائص الربوبية كالخلق والرزق ونحو ذلك، بل أقروا بكل ذلك لله وحده كما قال عز وجل: ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾ . [يونس:٣١] ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ . [العنكبوت:٦١] ﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ . [العنكبوت:٦٣] ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ [لقمان:٢٥].

أما هؤلاء فلئن سألتهم عن شيء من ذلك ليقولن: المسيح، فهو عندهم الإله الخالق المحيي المميت، باعث الرسل، ومنزل الكتب، حكى الإمام ابن القيم عنهم أنهم قالوا :(وليس المسيح عند طوائفنا الثلاثة هكذا). بنبي ولا عبد صالح، بل هو رب الأنبياء وخالقهم وباعثهم ومرسلهم وناصرهم، ومؤيدهم ورب الملائكة)(١).

وفي قرارهم الذي قرروه في (مجمع نيقية)(٢) الذي عقد سنة ٣٢٥م وسموه بـ(الأمانة) ونصوا فيه على ألوهية المسيح عليه السلام، صرحوا بأنه هو الذي سينزل للقضاء بين الناس يوم القيامة ومحاسبتهم ومجازاتهم فقالوا:(وهو مستعد للمجيء تاره أخرى للقضاء بين الناس يوم القيامة ومحاسبتهم

---

(١) هداية الحيارى، ٢٦٩ .

(٢) سمي بذلك، نسبة إلى مدينة نيقية من أعمال إصطنبول التي اجتمع بها عدد من علماء النصارى، وكان من قراراتهم القول بإلهية المسيح.

ومجازاتهم) وقالوا: (وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء) (١).

يقول أحد قساوستهم فى رسالة إلى أبى عبيدة الخزرجى (٢)، مصرحاً بألوهية المسيح وأنه خالق السماوات والأرض : (أما بعد حمد الله الذى هدانا لدينه، وأيدنا بيمينه، وخصنا بابنه ومحبوبه، ومد علينا رحمته بصلبه المسيح إلهنا، الذى خلق السماوات والأرض وما بينهن، والذى أمدنا بدمه المقدس ومن عذاب جهنم وقانا . . .) (٣).

وقال مخاطباً أبا عبيدة داعياً إياه للإيمان بألوهية المسيح الخالق: (وما عقائدكم كلها إلا حسنة، وكان عندكم عدل كثير فى أصل دينكم، وخير شامل، فلو آمنتم بالمسيح وقلتم : إنه هو الله خالق السموات والأرض لكمل إيمانكم) . (٤)

وهكذا نرى النصارى يصفون المسيح عليه السلام بصفات الربوبية المختصة برب العالمين عز وجل ، وهذا أمر انفردوا به من بين العالمين ، ولم يقتصر الأمر على المسيح عليه السلام بل جعلوا لغيره من الخلق بعض صفات الله تبارك وتعالى ، فجعلوا مريم عليها السلام إلهة ؛ لأنها أم الله بزعمهم ، ووصفوها بالجلوس على العرش مع الله عز وجل ، وسألوها مالا يسأل إلا من الله عز وجل .

يقول الإمام ابن القيم : (وأما قولهم فى مريم : فإنهم يقولون إنها أم المسيح ابن الله ووالدته فى الحقيقة . . وأنها على العرش جالسة عن يسار الرب تبارك وتعالى والد ابنها ، وابنها عن يمينه ، قال : والنصارى يدعونها ، ويسألونها سعة الزرق وصحة البدن وطول العمر ومغفرة الذنوب(٥)) .

---

(١) انظر: الشهرستانى، الملل والنحل: ٢/٢٨ .

(٢) هو أبو جعفر أحمد بن عبد الصمد بن أبى عبيدة الخزرجى الساعدى كان مشهورا بالذكاء والنبل مات بفاس بالمغرب عام ٥٨٢ هـ .

(٣) أبو عبيدة الخزرجى بين المسيحية والإسلام: ٧٢ .

(٤) نفس المصدر : ٨٧ . (٥) هداية الحيارى : ٢٦١ .

وهذه الأمور لا يملكها إلا الله عز وجل ولا يسألها إلا هو سبحانه ، ولقد أشار القرآن الكريم إلي قول النصارى بألوهية مريم فى قوله تبارك وتعالى مخاطبا عيسى : ﴿ وإِذْ قَالَ اللَّهُ يا عيسى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة:١١٦] . بل خصوا كنائسهم وبابواتهم ومطارنتهم ببعض خصائص الله عز وجل كمغفرة الذنوب ودخول الجنة والحرمان منها، ففى المجمع الثانى عشر من مجامعهم المعقود فى سنة ١٢١٥ م قررورا : (أن الكنيسة البابوية تملك الغفران وتمنحه لمن تشاء) . [١] وبناء على هذا القرار قامت الكنيسة بإصدار ما يسمى (صكوك الغفران) .

يقول أحد قسسهم فى هذا : (وقد جعل الله فى أيدى المطارين ما لم يجعله فى يد أحد ، وذلك أن كل ما يفعلون فى الأرض يفعله الله فى السماء ، فإذا أذنبنا فهم الذين يقبلون التوبات ويعفون عن السيئات بأيديهم صلاح الأحياء والأموات) [٢]. ماذا أبقوا لله عز وجل ؟ !!!

٢ ـ ومن ضلالهم فى هذا الباب أيضاً : أنهم سبوا الخالق عز وجل وتنقصوه وذلك من وجهين :

الأول : قولهم إنه اتخذ ولداً ، حيث قالوا: إن المسيح ابن الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ . [التوبة : ٣٠] وقد نزه الله عز وجل نفسه عن اتخاذ الصاحبة والولد فقال : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ [البقرة : ١١٦] وقال سبحانه : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ . [مريم: ٨٨ ـ ٩٣]، فأنكر قولهم، ونزه نفسه عن أن يكون له ولد .

---

(١) أبو زهرة ، النصرانية : ١٤٨ .

(٢) أبو عبيدة الخزرجى ، بين المسيحية والإسلام : ٩١ .

وبين سبحانه في آية أخرى أن الولد لا يكون إلا من صاحبه، وهو سبحانه لا صاحبة له، فقال عز وجل: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .[الأنعام: ١٠١].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: (أي: كيف يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة؟ أي: الولد إنما يكون متولداً عن شيئين متناسبين، والله لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالق كل شيء فلا صاحبة ولا ولد...) [(١)].

وقد بين سبحانه في الحديث القدسي، أن من نسب إليه اتخاذ الولد فقد شتمه وسبه بقوله ذلك، ففي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك. وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله: لي ولد فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً» [(٢)].

الثاني: زعمهم أن الله سبحانه وتعالى عن قولهم علواً كبيراً (نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار إنساناً وحبل به وولد من مريم البتول وقتل وصلب) [(٣)].

وقال القس القوطي في رسالته إلى أبي عبيدة الخزرجي يشرح فيها مذهبه: (... فهبط بذاته من السماء والتحم في بطن مريم العذراء البتول أم النور فاتخذ لنفسه منها حجاباً كما سبق في حكمته...) [(٤)].

يقول الإمام ابن القيم: (... إن هذه الأمة ـ أي: النصارى ارتكبت محذورين عظيمين، لا يرضى بهما ذو عقل ولا معرفة، أحدهما: الغلو في المخلوق، حتى جعلوه شريك الخالق وجزءاً منه، وإلهاً آخر معه، ونفوا أن يكون عبداً له.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/٣٠٢.

(٢) البخاري: كتاب التفسير، باب: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا...﴾: ٨/١٦٨، رقم ٤٤٨٢.

(٣) انظر: الشهرستاني، الملل والنحل: ٢/٢٨.

(٤) أبو عبيدة الخزرجي، بين المسيحية والإسلام: ٨٣ ـ ٨٤.

والثالث: تنقص الخالق وسبه ورميه بالعظائم، حيث زعموا أنه سبحانه وتعالى عن قولهم علوا كبيراً ـ نزل من العرش عن كرسى عظمته، ودخل فى فرج امرأة وأقام تسعة أشهر يتخبط بين البول والدم والنجو [١]، وقد علته أطباق المشيمة والرحم والبطن، ثم خرج من حيث دخل، رضيعاً صغيراً يمص الثدى... ثم صار إلى أن لطمت اليهود خديه، وربطوا يده، وبصقوا فى وجهه، وصفعوا قفاه، وصلبوه جهراً بين لصين، وألبسوه إكليلاً من الشوك، وسمروا يديه ورجليه، وجرعوه أعظم الآلام، هذا هو الإله الحق الذى بيده أتقنت العوالم وهو المعبود المسجود له، ولعمر الله إن هذه مسبة لله سبحانه ما سبه بها أحد من البشر قبلهم ولا بعدهم....).

وذكر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أنه قال فيهم: (أهينوهم ولا تظلموهم، فلقد سبوا الله عز وجل مسبة ما سبه إياها أحد من البشر) [٢].

وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية من قول معاذ بن جبل رضى الله عنه [٣].

---

(١) النجو: ما يخرج من البطن من ريح وغائط. انظر: لسان العرب: ١٥/٣٠٦.

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: ٢/٢٧٨.

(٣) الجواب الصحيح: ٢/٥٢.

المبحث الثالث
موقف المسلمين

أما هذه الأمة المسلمة فقولها فى هذا الباب هو ما جاء به المرسلون من توحيد الله وإفراده بالعبادة، فآمنت بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا إله غيره، ولا رب سواه وهو رب العالمين، وخالق الكون، ومدبره ﴿ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ . [الأعراف : ٥٤] ونزهوه سبحانه عن الأنداد، واتخاذ الصاحبة والأولاد، تصديقاً لقوله تعالى عن نفسه : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ . [المؤمنون : ٩١]، وقال كما قال مؤمنوا الجن :﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ﴾ . [الجن :٣] وقوله:﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ . [الإخلاص] .

ووصفوه سبحانه بصفات الكمال والجلال، ونزهوه عن جميع صفات النقص، كما نزهوه عن أن يماثله شيء من المخلوقات فى شيء من الصفات . . .)[١] . ولم يصفوه إلا بما وصف به نفسه سبحانه، أو وصفته به رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، من غير تعطيل ولا تمثيل، فلم يشبهوه بشيء من خلقه لا فى ذاته ولا فى صفاته ـ كما فعل اليهود ـ بل قالوا:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ . [الشورى : ١١] . ولم يشبهوا شيئاً من خلقه به، لا فى ذاته ولا فى شيء من صفاته، ولم يجعلوا له نظيراً أو نداً أو مثيلا أو شريكاً فى شيء من خصائص ألوهيته وربوبيته ـ كما صنع النصارى ـ بل نزهوه سبحانه عن الشبيه والنظير والكفء والند والمثيل [٢] .

وإذا تأملت سورة الإخلاص وجدت بها صفات الكمال لله سبحانه وتعالى

---

(١) منهاج السنة لابن تيمية : ٥ / ١٦٩ .

(٢) وسطية أهل السنة بين الفرق : ٢٥٨ .

وهو أنه المنفرد بها وحده دون ما سواه قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. [الإخلاص] ففى هذا السورة وصف الله سبحانه نفسه بأنه أحد صمد، فهذان الوصفان يدلان على اتصاف الله بغاية الكمال المطلق (١).

وذكر أبو هريرة فى معنى الصمد: (إنه المستغنى عن كل أحد والمحتاج إليه كل أحد) (٢) ومن خلال قول أبى هريرة فى معنى الصمد يدل على الإثبات والتنزيه، فالإثبات بوصفه سبحانه بأنه هو الذى يصمد إليه أى يرجع إليه فى كل أمر؛ وذلك لأنه هو المتصف بجميع صفات الكمال، فهو القادر على كل شىء، والفعال لما يريد، والذى بيده الخلق والأمر والجزاء، وما من قوة لغيره تعالى إلا بهيمنة منه، إذا شاء أبقاها ومتى شاء سلبها، فالمرجع والمرد إليه سبحانه (٣).

وأما التنزيه، فبوصفه تعالى بأنه غنى عن كل شىء، فلا افتقار فيه بوجه من الوجوه، لا فى وجوده فإنه الأول الذى ليس قبله شىء، وهو الذى لم يلد ولم يولد، ولا فى بقائه فإنه الذى يطعم ولا يطعم، ولا فى أفعاله فلا شريك ولا ظهير (٤).

كما أن وصفه سبحانه بأنه أحد صمد يدل على اتصافه بالكمال المطلق وكذلك يدلان على معنى آخر وهو نفى الولادة والتولد عن الله سبحانه، فإن الصمد جاء فى بعض الأقوال بأنه لا جوف له ولا أحشاء، فلا يدخل فيه شىء فلا يأكل ولا يشرب سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. [الأنعام: ١٤] وقال تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾. [الذريات: ٥٦ – ٥٨] فإن الأحد هو الذى لا كفء له ولا نظير فيمتنع أن تكون له صاحبة.

والتولد إنما يكون من شيئين قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ

---

(١) علو الله على خلقه بتصرف: ٢٨.
(٢) تفسير القرطبى: ٢/٢٤٥.
(٣) علو الله على خلقه بتصرف: ٢٨، ٢٩.
(٤) المرجع السابق ص (٢٨، ٢٩)

ولدٌ ولم تكن له صاحبةٌ وخلق كلّ شىء وهو بكلّ شىء عليم ﴾ . [الأنعام: ١٠١]

وفى قوله تعالى:﴿ ولم يكن له كفوا أحدٌ ﴾ . (الإخلاص: ٤) وفى هذا سلب عن المخلوق مكافأته ومماثلته للخالق ومثل ذلك قوله تعالى:﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ . [الأنعام: ١] أى يعدلون به غيره فيجعلون له من خلقه عدلا.

ومثال هذا قوله تعالى:﴿ رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميًا ﴾ . [مريم: ٦٥] أى لا شيئاً يساميه ولا نداً ولا عدلاً ولا نظيرا له يساويه، فأنكر التشبيه والتمثيل وبهذا يتبين لنا أن تنزيهه سبحانه عن العيوب والنقائص واجب لذاته، كما دلت على ذلك سورة الإخلاص(١).

١ ـ المرجع السابق: (٢٨ – ٣٤) للدويش.

المبحث الرابع
مفهوم الإيمان كما جاء فى القرآن

لا ريب أن مفهوم الإيمان عندما نصل إليه من خلال القرآن وتوضيح سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام : هى الوسطية بعينها فى هذا الباب، وهى الاستقامة والاعتدال؛ لذلك حرصت على إيضاح مفهوم الإيمان كما جاء فى القرآن والسنة خصوصاً وأن الناس قد وقعوا فى الإفراط والتفريط لبعدهم عن الوحيين الكتاب والسنة .

أولا : فى حد الإيمان وتفسيره :

إن معرفة حدود الاشياء وتفسيرها الذى يوضحها، يجب أن تتقدم أحكامها، فإن الحكم على الأشياء فرع عن تصورها، فمن حكم على أمر من الأمور ـ قبل أن يحيط علمه بتفسيره، ويتصوره تصوراً يميزه عن غيره ـ أخطأ خطأ فاحشاً.

أما حد الإيمان وتفسيره، فهو : (التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أمر الله ورسوله بالإيمان به، والانقياد ظاهراً وباطناً، فهو تصديق القلب واعتقاده المتضمن لأعمال القلوب وأعمال البدن، وذلك شامل للقيام بالدين كله) (١).

ولهذا كان الأئمة والسلف يقولون : الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح وهو : قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية. فهو يشمل عقائد الإيمان، وأخلاقه، وأعماله، فالإقرار والاعتراف بما لله تعالى : من الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال الناشئة عن أسمائه وصفاته، وهو من أعظم أصول الإيمان، وكذلك الاعتراف بما لله من الحقوق الخاصة ـ وهو : التأله والتعبد لله ظاهراً وباطناً ـ من أصول الإيمان والاعتراف بما أخبر الله به عن ملائكته وجنوده، والموجودات السابقة واللاحقة، والإخبار باليوم الآخر، كل هذا من أصول الإيمان (٢).

---

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان للسعدى : ٩ .

(٢) انظر : المرجع السابق : ١٠ .

وكذلك الإيمان بجميع الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وما وصفوا به في الكتاب والسنة من الأوصاف الحميدة، كل هذا من أصول الإيمان، كما أن أعظم أصول الإيمان: الاعتراف بانفراد الله بالوحدانية والألوهية، وعبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين لله، والقيام بشرائع الإسلام الظاهرة، وحقائقه الباطنة كل هذا من أصول الإيمان؛ ولهذا رتب الله على الإيمان دخول الجنة والنجاة من النار، ورتب عليه رضوانه والفلاح والسعادة. ولا يكون ذلك إلا بما ذكرنا: من شموله للعقائد وأعمال القلوب، وأعمال الجوارح؛ لأنه متى فات شيء من ذلك، حصل من النقص وفوات الثواب، وحصول العقاب ـ بحسبه.

بل أخبر الله تعالى: أن الإيمان المطلق تنال به أرفع المقامات في الدنيا، وأعلى المنازل في الآخرة، فقال تعالى: ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ﴾. [الحديد: ١٩].

والصديقون هم أعلى الخلق درجة بعد درجة الأنبياء، في الدنيا، وفي منازل الآخرة، وأخبر في هذه الآية، أن من حقق الإيمان به وبرسله، نال هذه الدرجة ويفسر ذلك ويوضحه ما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ قال: « **إن أهل الجنة ليتراؤون الغرف في الجنة. كما تراؤون الكوكب الشرقي أو الغربي في الأفق. لتفاضل ما بينهم** »، فقالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «**بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين**»(١).

وإيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين: في ظاهرهم وباطنهم، في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم، وفي كمال طاعتهم لله ولرسوله، فقيامهم بهذه الأمور، به يتحقق إيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين. وقد أمر الله في كتابه بهذا الإيمان العام الشامل، وما يتبعه: من الانقياد والاستسلام، وأثنى على من قام به، فقال في أعظم آيات الإيمان: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم(٦٥٥٦)، ومسلم، كتاب الجنة، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف رقم (٢٨٣٠).

أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ . [البقرة: ١٣٦].

فأمر الله عباده بالإيمان بجميع هذه الأصول العظيمة والإيمان الشامل بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله، والإخلاص والاستسلام والانقياد له وحده بقوله: ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ . كما أثنى على المؤمنين فى آخر السورة بالقيام بذلك، فقال: ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ . [البقرة: ٢٨٥].

فأخبر: أن الرسول ومن معه من المؤمنين، آمنوا بهذه الأصول ولم يفرقوا بين أحد من الأنبياء، بل آمنوا بهم جميعاً، وبما أوتوه من عند الله، وأنهم التزموا طاعة الله، فقالوا: سمعنا وأطعنا، وطلبوا من ربهم : أن يحقق لهم ذلك وأن يعفوا عن تقصيرهم ببعض حقوق الإيمان، وأن مرجع الخلائق كلهم ومصيرهم إلى الله يجازيهم بما قاموا به من حقوق الإيمان، وما ضيعوه منها كما قال تعالى عن أتباع الأنبياء عيسى وغيره أنهم قالوا: ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ . [آل عمران: ٥٣] فآمنوا بقلوبهم، والتزموا بقلوبهم، وانقادوا بجوارحهم، وسألوا الله أن يكتبهم مع الشاهدين له بالتوحيد وأن يحقق لهم القيام به، قولاً وعملاً واعتقاداً وقال تعالى: ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون (٢) الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (٣) أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ . [الأنفال: ٢ - ٤].

الصلاة فرضها ونفلها: يقيمونها ظاهراً وباطناً، ويؤتون الزكاة، وينفقون النفقات الواجبة والمستحبة، ومن كان على هذا الوصف فلم يبق من الخير مطلباً، ولا من الشر مهرباً. ولهذا قال: ﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾، الذين يستحقون هذا الوصف على الحقيقة، ويحققون القيام به ظاهراً وباطناً ثم ذكر ثوابهم الجزيل - المغفرة المتضمنة لزوال كل شر ومحذور ورفعة الدرجات عند ربهم، والرزق الكريم المتضمن من النعم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال تعالى: ﴿ قد أفلح المؤمنون (١) الذين هم في صلاتهم خاشعون (٢) والذين هم عن اللغو معرضون (٣) والذين هم للزكاة فاعلون (٤) والذين هم لفروجهم حافظون (٥) إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين (٦) فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون (٧) والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون (٨) والذين هم على صلواتهم يحافظون (٩) أولئك هم الوارثون (١٠) الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾. [المؤمنون: ١-١١]. ففسر الله الإيمان في هذه الآيات بجميع هذه الخصال فإنه أخبر بفلاح المؤمنين، ثم وصفهم بقوله: ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ إلى آخر الآيات المذكورة - فمن استكمل هذه الأوصاف فهو المؤمن حقاً، ومضمونها: القيام بالواجبات الظاهرة والباطنة، واجتناب المحرمات والمكروهات، وبتكميلهم للإيمان استحقوا أن يكونوا ورثة جنات الفردوس التي هي أعلى الجنات، كما أنهم قاموا بأعلى الكمالات. وهذه صريحة في أن الإيمان يشمل عقائد الدين، وأخلاقه، وأعماله الظاهرة والباطنة، ويترتب على ذلك: أنه يزيد بزيادة هذه الأوصاف والتحقق بها، وينقص بنقصها، وأن الناس في الإيمان درجات متفاوتة بحسب تفاوت هذه الأوصاف (١).

ولهذا كانوا ثلاث درجات: سابقون مقربون، وهم الذين قاموا بالواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، وفضول المباحات، ومقتصدون، وهم: الذين قاموا بالواجبات، وتركوا المحرمات، وظالمون لأنفسهم، وهم: الذين تركوا بعض واجبات الإيمان، وفعلوا بعض المحرمات، كما ذكرهم الله بقوله: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾. [فاطر: ٣٢] وقد يعطف الله على الإيمان، الأعمال الصالحة أو التقوى أو الصبر، للحاجة إلى ذكر المعطوف؛ لئلا يظن الظان أن الإيمان يكتفى فيه بما في القلب فكما في القرآن من قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾. [البقرة: ٢٧٧] ثم يذكر خبراً عنهم،

---

(١) انظر: التوضيح والبيان: ١٦.

والأعمال الصالحات من الإيمان فمن ادعى أنه مؤمن: وهو لم يعمل بما أمر الله به ورسوله من الواجبات، ومن ترك المحرمات فليس بصادق فى إيمانه وهذا من وسطية القرآن واستقامته واعتداله وحكمته فى هذا الباب.

كما يقرن بين الإيمان والتقوى، فى مثل قوله تعالى: ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٦٢) الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾. [يونس: ٦٢، ٦٣] فذكر الإيمان الشامل لما فى القلوب من العقائد والإرادات الطيبة، والأعمال الصالحة، ولا يتم للمؤمن ذلك حتى يتقى ما يسخط الله من الكفر والفسوق والعصيان؛ ولهذا حقق ذلك بقوله: ﴿ وكانوا يتقون ﴾ كما وصف الله بذلك خيار خلقه، بقوله: ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون (٧) فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم ﴾. [الحجرات: ٧، ٨] فهذه أكبر المنن، أن يحبب الله الإيمان للعبد، ويزينه فى قلبه، ويذيقه حلاوته، وتنقاد جوارحه للعمل بشرائع الإسلام، ويبغض الله إليه أصناف المحرمات والله عليم بمن يستحق أن يتفضل عليه بهذا الفضل، حكيم فى وضعه فى محله اللائق به.

كما ثبت فى الصحيح من حديث أنس رضى الله عنه أنه قال ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع عن دينه، كما يكره أن يقذف فى النار»[1]. فذكر أصل الإيمان الذى هو محبة الله ورسوله، ولا يكتفى بمطلق المحبة، بل لابد أن تكون محبته لله مقدمة على جميع المحاب، وذكر تفريعها: بأن يحب لله، ويبغض لله فيحب الأنبياء والصديقين، والشهداء والصالحين؛ لأنهم قاموا بمحاب الله واختصهم من بين خلقه، وذكر دفع ما يناقضه وينافيه، وأنه يكره أن يرجع عن دينه أعظم كراهة تقدر أعظم من كراهة إلقائه فى النار.

أخيرا فى هذا الحديث: أن للإيمان حلاوة فى القلب، إذا وجدها العبد سلته

---

(١) رواه مسلم شرح النووى، كتاب الإيمان، باب: الحياء شعبة من الإيمان: ٢/ ٦.

عن المحبوبات الدنيوية، وعن الأعراض النفسية، وأوجبت له الحياة الطيبة، فإن أحب الله ورسوله لهج بذكر الله طبعاً ـ فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره ـ واجتهد فى متابعة الرسول، وقدم متابعته على كل قول، وعلى إرادة النفوس وأغراضها، من كان كذلك فنفسه مطمئنة مستحلية للطاعات، قد انشرح صدر صاحبها للإسلام، فهو على نور من ربه، وكثير من المؤمنين لا يصل إلى هذه المرتبة العالية ﴿ ولكلٍ درجاتٌ مما عملوا ﴾ . [الأنعام: ١٣٢].

وكذلك فى الصحيحين من حديث أبى هريرة أنه ﷺ قال: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان**». وهذا صريح أن الإيمان يشمل أقوال اللسان، وأعمال الجوارح، والاعتقادات والأخلاق، والقيام بحق الله، والإحسان إلى خلقه، فجمع فى هذا الحديث بين أعلاه وأصله وقاعدته وهو قول: لا إله إلا الله، اعتقادا وتألها، وإخلاصها لله وبين أدناه، وهو إماطة العظم والشوكة وكل ما يؤذى عن الطريق ، فكيف بما فوق ذلك: من الإحسان وذكر الحياء، والله أعلم؛ لأن الحياء به حياة الإيمان، وبه يدع العبد كل فعل قبيح كما به يتحقق كل خلق حسن، وهذه الشعب ـ المذكورة فى هذا الحديث ـ هى جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة. وهذا ـ أيضا ـ صريح فى أن الإيمان يزيد وينقص بحسب زيادة هذه الشرائع والشعب واتصاف العبد بها أوعدمه، ومن العلوم أن الناس يتفاوتون فيها تفاوتاً كبيراً، فمن زعم: أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص فقد خالف الحس مع مخالفته لنصوص الشارع كما ترى (١).

والانقياد لحكم الله ورسوله من علامات الإيمان قال تعالى: ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ . [النساء: ٦٥] فأقسم تعالى أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله، ولا يبقى فى قلوبهم حرج وضيق من حكمه وينقادوا له انقياداً،وينشرحوا لحكمه، وهذا شامل فى تحكيمه فى أصول الدين، وفى فروعه، وفى الأحكام

(١) انظر: التوضيح والبيان: ٢٣ .

الكلية، والأحكام الجزئية [١]. وفى صحيح البخارى عن أنس مرفوعا: « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه** » [٢]. وذلك يقتضى أن يقوم بحقوق إخوانه المسلمين الخاصة والعامة، فإنه من الإيمان، ومن لم يقم بذلك ويحب لهم ما يحب لنفسه، فإنه لم يؤمن الإيمان الواجب بل نقص إيمانه بقدر ما نقص من الحقوق الواجبة عليه (٣).

وفى صحيح مسلم من حديث العباس بن عبد المطلب [٤] رضى الله عنه قال: قال ﷺ: « **ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا** » [٥].

والرضا بذلك يقتضى الفرح بذلك، والسرور بربوبية الله له، وحسن تدبيره وأفضليته عليه، وأن يرضى بالإسلام ديناً، ويفرح به، ويحمد الله على هذه النعمة التى هى أكبر المنن، حيث رضى الله له الإسلام ووفقه له، واصطفاه له، ويرضى بمحمد ﷺ نبياً، إذ هو أكمل الخلق، وأعلاهم فى كل صفة كمال، وأمته وأتباعه أكمل الأمم وأعلاهم، وأرفعهم درجة فى الدنيا والآخرة.

فالرضا بنبوة الرسول ورسالته واتباعه، من أعظم ما يثمر الإيمان، ويذوق به العبد حلاوته، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾. [التوبة: ١٢٨].

فكيف لا يرضى المؤمن بهذا لرسول الكريم الرؤوف الرحيم الذى أقسم الله

---

(١) انظر: التوضيح والبيان: ٢٣.

(٢) رواه البخارى، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه: ١/ ١١.

(٣) انظر: التوضيح والبيان: ٢٤.

(٤) هو العباس بن عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف بن قصى القرشى أبو الفضل عم النبى ﷺ أسلم قبل عام الفتح وقدمه عمر فى صلاة الاستسقاء وتوفى عام ٣٢ هـ.

(٥) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب من رضى بالله وبالإسلام وبمحمد: ١/ ٦٢.

أنه لعلى خلق عظيم،وأشرف مقام للعبد انتسابه لعبودية الله، واقتداؤه برسوله ، ومحبته واتباعه؛ وهذا علامة محبة الله ؛ وباتباعه تتحقق المحبة والإيمان. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .[آل عمران: ٣١].

وفى صحيح مسلم من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى قال: قلت :يا رسول الله؛ قل لى فى الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحدا بعدك، قال: « قل آمنت بالله. ثم استقم » .(١)

فبين ﷺ بهذه الوصية الجامعة أن العبد إذا اعترف بالإيمان ظاهراً وباطناً، ثم استقام عليه قولاً وعملاً ، فعلاً وتركاً، فقد كمل أمره ، واستقام على الصراط المستقيم ، ورجى له فلاح الدارين . وبعد هذا العرض الموجز لمفهوم الإيمان كما جاء فى القرآن ووضحته أحاديث سيد ولد عدنان عليه أفضل الصلاة والسلام، يتضح لنا مفهوم الإيمان بعيداً على من أنكره جملة كالملاحدة، أو انحرف فى فهم حقيقته كالفلاسفة أو حرفوه عن أصله كاليهود أو ضلوا عن تصور معانيه والوقوف على ماهيته كالنصارى، وبذلك يتضح لنا مفهوم الإيمان ووسطية واستقامة واعتدال القرآن فى عرضه .

وابتعدت عن أقوال من وقع فى البدع فى حقيقة هذا الجانب من المعتزلة والخوارج والمرجئة والجهمية، واكتفيت بقول واعتقاد أهل السنة والجماعة الذين هم الصحابة رضى الله عنهم، وكل من سلك نهجهم من خيار التابعين رحمة الله عليهم، ثم أصحاب الحديث ومن تبعهم من الفقهاء جيلاً فجيلاً إلى يومنا هذا، ومن اقتدى بهم من العوام فى شرق الأرض وغربها رحمة الله عليهم.(٢)

وقد بين النبى ﷺ أن النجاة لا تكون إلا لمن كان على ماكان عليه رسول الله وأصحابه ومن تابعهم إلى يوم الدين قال رسول الله ﷺ : « .... وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلهم فى النار إلا واحدة» قالوا: وما هى يا رسول الله؟

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام : ١/ ٦٥.

(٢) انظر: الفصل فى الملل والأهواء والنحل: ٢/ ١١٣.

قال: «ما أنا عليه وأصحابى». (١)

ثانيا: منهج القرآن فى الأمور التى يستمد منها الإيمان.

بما أن الإيمان أعظم المطالب وأهمها وأعمها؛ لذلك جعل الله له مواد كبيرة تجلبه وتقويه، كما أنه له أسباب تضعفه وتوهيه.

والمواد التى تجلبه وتقويه أمران: **مجمل، ومفصل**، أما المجمل فهو: التدبر لآيات الله المتلوة: من الكتاب، والسنة، والمتأمل لآياته الكونية على اختلاف أنواعها، والحرص على معرفة الحق الذى خلق له العبد، والعمل بالحق، فجميع الأسباب مرجعها إلى هذا الأصل العظيم.

وأما التفصيل: **فالإيمان يحصل ويقوى بأمور كثيرة**: منها بل أعظمها:

أولا: **معرفة أسماء الله الحسنى الواردة فى الكتاب والسنة، والحرص على فهم معانيها، والتعبد لله فيها، قال تعالى**: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. [الأعراف: ١٨٠] **فالتأمل فى أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى من منهج الوسطية والإلحاد فى أسمائه وصفاته خروج عن منهج الوسطية الذى رسمه القرآن** ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾. [الإسراء: ١١٠] **والذين يصفون الله بغير ما وصف به نفسه فى كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، يلحدون فى آيات الله، وهذا انحراف عن الصراط المستقيم**: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾. [فصلت: ٤٠] **ولذلك فإن الحرص على معرفة أسماء الله الحسنى وفهم معانيها يزيد الإيمان.**

فقد ثبت فى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً - مائة إلا واحدا - من أحصاها، دخل الجنة» (٢) أى من حفظها، وفهم معانيها، واعتقدها، وتعبد الله بها دخل الجنة، والجنة لا يدخلها إلا المؤمنون فاعلم:

١- رواه الترمذى: كتاب الإيمان، باب ما جاء فى افتراق هذه الأمة: ٥/ ٢٦ رقم الحديث: ٢٦٤١ وحسنه.

٢- البخارى مع الفتح، كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم: ١١/ ٢١٨، رقم الحديث: ٦٤١٠.

أن ذلك أعظم ينبوع ومادة لحصول الإيمان وقوته وثباته، معرفة الأسماء الحسنى هي أصل الإيمان، والإيمان يرجع إليها.

ومعرفتها تتضمن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأنواع هي روح الإيمان وروحه، وأصله وغايته. فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته، ازداد إيمانه، وقوى يقينه، فينبغي للمؤمن: أن يبذل مقدوره ومستطاعه في معرفة الأسماء والصفات، وتكون معرفته سالمة من داء التعطيل، ومن داء التمثيل اللذين ابتلى بهما كثير من أهل البدع المخالفة لما جاء به الرسول ﷺ، بل تكون المعرفة متلقاة من الكتاب والسنة، وما روى عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فهذه المعرفة النافعة التي لايزال صاحبها في زيادة في إيمانه وقوة يقينه، وطمأنينة في أحواله (١).

ويعجبني في هذا المقام كلام نفيس للعلامة ابن القيم رحمه الله حيث يقول: (ومشهد الأسماء والصفات من أجل المشاهد، والمطلع على هذا المشهد يعرف أن الوجود متعلق خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنى والصفات العلى، ومرتبط بها وإن كل ما في العالم بما فيه من بعض آثارها ومقتضياتها، فاسمه الحميد، المجيد، يمنع ترك الإنسان سدى مهملاً معطلاً، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب، وكذلك اسمه (الحكيم) يأبى ذلك، وهكذا فكل اسم من أسمائه له موجبات وله صفات لا ينبغي تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها والرب تعالى يحب ذاته وأوصافه وأسماءه، فهو عفو يحب العفو، ويحب المغفرة، ويحب التوبة، ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يخطر بالبال.

وكان تقدير ما يغفره ويعفو عن فاعله، ويحلم عنه، ويتوب عليه ويسامحه بموجب أسمائه وصفاته، وحصول ما يحبه ويرضاه من ذلك، وما يحمد به نفسه ويحمد به أهل سماواته وأهل أرضه، وما هو من موجبات كماله ومقتضى حمده وهو سبحانه الحميد المجيد، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما ومن آثارهما:

---

(١) انظر: التوضيح والبيان: ٤١.

مغفرة الزلات وإقالة العثرات، والعفو عن السيئات، أو المسامحة عن الجنايات مع كمال القدرة على استيفاء الحق، والعلم منه سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتهما فحلمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته كما قال عيسى عليه السلام فى القرآن: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. [المائدة: ١١٨] أى فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك لست كمن يغفر عجزاً، ويسامح جهلاً بقدر الحق، بل أنت عليم بحقك، قادر على استيفائه حكيم فى الأخذ به، فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات فى العالم، وفى الأمر يتبين له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد، وتقديرها هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال، وغايتها أيضاً مقتضى حمده ومجده، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته، فلله فى كل ما قضاه وقدره الحكمة البالغة، والآيات الباهرة.

والله سبحانه دعا عباده إلى معرفته بأسمائه وصفاته وأمرهم بشكره ومحبته وذكره وتعبدهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ لأن كل اسم له تعبد مختص به، علماً ومعرفة وحالاً، وأكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء والصفات التى يطلع عليها البشر، فلا يحجبه اسم عن اسم آخر، كما لا يحجبه التعبد باسمه (القدير) عن التعبد باسمه (الحليم الرحيم) أو يحجبه عبودية اسمه (المعطى) عن عبودية اسمه (المانع) أو عبودية اسمه (الرحيم، العفو، والغفور) عن اسم المنتقم أو التعبد بأسماء (البر، والإحسان، واللطف) عن أسماء العدل والجبروت، والعظمة والكبرياء، وهذه طريقة الكمال من السائرين إلى الله، وهى طريقة مشتقة من قلب القرآن قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا..﴾. [الأعراف: ١٨٠] والدعاء بها يتناول دعاء المسألة ودعاء الثناء ودعاء التعبد (١) وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها.

فالله تعالى يحب موجب أسمائه وصفاته، فهو عليم يحب كل عليم وهو

---

(١) انظر: مدارج السالكين: ٢/٤١٧ - ٤١٩.

(جواد) يحب كل جواد، (وتر) يحب الوتر (جميل يحب الجمال) عفو يحب العفو وأهله (حيي) يحب الحياء وأهله (بر) يحب الأبرار (شكور) يحب الشاكرين (صبور) يحب الصابرين (حليم) يحب أهل الحلم، فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة، والعفو والصفح خلق من يغفر لهم ويتوب عليهم ويعفو عنهم، وقدر عليهم ما يقتضى وقوع المكروه المبغوض له، ليترتب عليه المحبوب له المرضى له (١).

وظهور أسماء الله وصفاته فى هذه الحياة وفى النفس البشرية وفى الكون كله واضح، لا يحتاج إلى دليل، إلا أن الاهتداء إلى تلك الآثار أو الانتباه لها يتوقف على توفيق الله تعالى، بل إن التوفيق نفسه من آثار رحمته التى وسعت كل شىء، فلو فكر الإنسان فى هذا الكون الفسيح وفى نفسه لرجع من هذه الجولة الفكرية، بعجائب واستفاد منها فوائد ما كان يحلم بها، ولو تأملنا هذه الآية الكريمة لرأينا أموراً تعجز عن التعبير عنها قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ . [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] ومما يدلل ويؤكد أهمية هذا التوحيد هو ما تثمره أسماء الله وصفاته فى قلب المؤمن من زيادة الإيمان ورسوخ فى اليقين، وما تجلبه له من النور والبصيرة التى تحفظه من الشبهات المضللة والشهوات المحرمة (٢).

فهذا العلم إذا رسخ فى القلب أوجب خشية الله لا محالة، فلكل اسم من أسماء الله له تأثير معين فى القلب والسلوك، فإذا أدرك القلب معنى الاسم وما تضمنه واستشعر ذلك، تجاوب مع هذه المعانى وانعكست هذه المعرفة على تفكيره وسلوكه، ولكل صفة عبودية خاصة هى من موجباتها ومقتضياتها فالأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية، وهذا مطرد فى جميع أنواع العبودية التى على القلب والجوارح، فمثلاً: علم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع، والعطاء والمنع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة يثمر له

---

(١) انظر: مدارج السالكين: ٢/ ٤٢٠.

(٢) انظر: دراسات فى مباحث توحيد الأسماء والصفات للتميمى: ١٤، ١٥.

عبودية التوكل عليه باطناً، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً، وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه أنه لا يخفى عليه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضى الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياء باطناً، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح، ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره، وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه [١].

وكذلك معرفته بجلال الله وعزه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هى موجباتها، وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى، وجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية، فرجعت العبودية إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها [٢].

وهذه الأحوال التى تتصف بها القلوب: هى أكمل الأحوال وأجل وصف يتصف به القلب وينصبغ به، ولا يزال العبد يمرن نفسه عليها حتى تنجذب نفسه وروحه بدواعيه منقادة راغبة ،وبهذه الأعمال القلبية تكمل الأعمال البدنية فنسأل الله أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته والإنابة إليه، فإنه أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين [٣].

لكل صفة من صفات الله أثر فى قلب المؤمن:

وقد يظن بعض الذين يدعون العلم، وممن لا حظ لهم من علوم الشريعة، أن معرفة أسماء الله وصفاته لا تؤثر فى الإيمان بالله من حيث الزيادة والنقصان ولا تؤثر فى القلوب، ولذلك لا فائدة من معرفتها أو جهلها أو إثباتها أو إنكارها، وقد توسع فى هذا الجانب الفلاسفة الذين وصفوا الله تعالى بصفات من عند أنفسهم ، وأنكروا وجحدوا ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله،

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم: ٢/ ٩٠ .

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم: ٢/ ٩٠ .

(٣) انظر: القواعد الحسان للسعدى: ١٣٠ .

فانحرفوا عن منهج الوسطية ووقعوا فى الإفراط والتفريط ، وابتعدوا عن الصراط المستقيم ومنهج الاعتدال الذى بينه القرآن الكريم.

ومما لا ريب فيه ،أنه ليست هناك صفة لله فى القرآن أو فى السنة إلا وقد ساقها الله تعالى لحكمة ومنفعة وغاية، ولولا ذلك لما ساقها ولما ذكرها؛ لأن كلامه وكلام رسوله ينزه عن العبث واللغو والحشو. ومن ظن أن الله يحشو كلامه بما لا فائدة فى ذكره، أو لا غاية من ورائه أو لا أهمية له فقد اتهم الله بالنقص واللغو.

ولبيان أن لكل صفة من صفات الله أثراً فى قلب المؤمن، سنبين ذلك ببعض التفاصيل من حيث: إن لكل صفة فى القلب أثراً يتضح ذلك، ويخرج فى السلوك البشرى، فلا توجد صفة من صفات الله إلا ولها أثر وفائدة، وإنما الذى ينكر الأثر هم الجهلة والجاحدين، أما علماء أهل السنة والجماعة فبينوا ذلك الأمر بياناً أوضح من الشمس فى رابعة النهار.

أثر صفة العظمة:

وهذه الصفة مشتقة من اسمه تعالى: (العظيم)، والعظمة صفة من صفاته لا يقوم لها خلق، والمقصود :أن عظمة الله سبحانه لا يمكن أن يتصف بها أحد من خلقه، والله خلق بين الخلق عظمة يعظم بها بعضهم بعضاً، فمن الناس من يعظم المال، ومنهم من يعظم لفضل، ومنهم من يعظم لعلم، ومنهم من يعظم لسلطان، ومنهم من يعظم لجاه، وكل واحد من الخلق إنما يعظم لمعنى دون معنى، والله عز وجل يعظم فى الأحوال كلها، فينبغى لمن عرف حق عظمته سبحانه أن لا يتكلم بكلمة يكرهها الله، ولا يرتكب معصية لا يرضاها الله.

فإذا شعر العبد بعظمة الله خاف مولاه واتقاه، ورغب فى مرضاته سبحانه وتعالى، والحديث الدال على صفة العظمة قول رسول الله ﷺ: «يقول تبارك وتعالى: العظمة إزارى، والكبرياء ردائى، فمن نازعنى واحداً منهما قذفته فى النار»(١).

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر: ٢/١٣٩٧، رقم الحديث: ٤١٧٥ وصححه الألبانى.

أثر صفة يد الله :

ومن الصفات التى جحدتها قلوب النفاة وأنكرها الزنادقة قديماً، وصف الله نفسه سبحانه بأن له يدين، وهذا ما قد مدح الله به نفسه فى آيات كثيرة من كتابه وقد مدحه بها النبى ﷺ فى أحاديث كثيرة، وهى تدخل فى صفات الله الذاتية، وقد بين سبحانه فى الآيات والأحاديث عظمة عطائه وسعة فضله، وأن يده الكريمة جل وعلا دائمة العطاء والإنفاق ، وفى مجال قوته وجبروته وبطشه وكمال قدرته وبيان عظمته أن السموات والأرض يوم القيامة تكون بيمينه ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ [الزمر : ٦٧] .

ولا شك أن أثر الإيمان بهذه الصفة فى قلب المؤمن عظيم؛ لأنه يورث القلب المهابة لله والخوف منه وتعظيم أمره ، وشأنه وأنه الملك الذى قهر الملوك ، وأنه لا مفر من قبضته ، ولا ملجأ منه إلا إليه .

أثر اسم الله الحميد :

وهذا الاسم يتضمن لصفة الحمد بكل أنواعه ، فهى صفة ذاتية لله عز وجل لا تنفك عنه ، وتظهر آثارها باستمرار فى كل لحظة، ومعناها أنه سبحانه مستحق لكل أنواع الحمد ؛ لأنه المحمود فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وليس ذلك لأحد سواه سبحانه ، كما يبدو لى أن العبد لا بد أن يسلك فى حياته سلوكا يحمد عليه ؛ لأن أعماله جميعاً يجب أن تكون خالصة للحميد ، ولو أن كل فرد تحرى أن يكون عمله حميداً لصلح أمر الناس فى الدنيا والآخرة ، ولاختفت المنازعات فيما بينهم والخصومات ولعاشوا إخوة فى الله متحابين [١] .

أثر اسم الله المهيمن .

ومن آثار هيمنته سبحانه أنه يملك أن يتصرف فى خلقه كيف يشاء؛ لأنه ملكهم والمالك من حقه أن يتصرف فى ملكه بكافة أنواع التصرف، من نماذج هذه التصرفات ما ذكره الله تنبيهاً وتذكيراً باستمرار وشمول هيمنته على خلقه

---

(١) انظر : مفهوم الأسماء والصفات مقال فى مجلة الجامعة الإسلامية العدد (٥٩) : ٧٠ .

سبحانه وتعالى [١].

قال تعالى : ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾[الأنعام : ٦٣- ٦٥] وإذا شعر القلب بهيمنة ربه عليه لجأ إليه وطلب العون منه؛ لدفع ضر أو جلب نفع ، والآيات فى هذا الباب كثيرة، وكذلك أحاديث رسول الله ﷺ .

أثر صفة العلو فى قلب العبد :

إذا أيقن العبد أن الله تعالى فوق السماء ، عال على عرشه بلا حصر ، ولا كيفية ، وأنه الآن فى صفاته كما كان فى قدمه ، كان لقلبه فى صلاته وتوجهه، ودعائه . ومن لا يعرف ربه بأنه فوق السماء على عرشه ، فإنه يبقى ضائعاً لا يعرف وجهة معبوده ، ولكن ربما عرفه بسمعه ، وبصره وقدمه وتلك بلا هذا معرفة ناقصة ، بخلاف من عرف أن إلهه الذى يعبده فوق الأشياء ، فإذا دخل فى الصلاة وكبر وتوجه قلبه إلى جهة العرش منزهاً له تعالى . مفردا له كما أفرده فى قدمه وألوهيته واعتقد أنه فى علوه قريب من خلقه ، وهو معهم بعلمه وسمعه وبصره وإحاطته وقدرته ومشيئته ، وذاته فوق الأشياء ، فوق العرش ، ومتى شعر قلبه بذلك فى الصلاة أشرق قلبه واستنار ، وأضاء بأنوار المعرفة والإيمان وعكفت أشعة العظمة على قلبه وروحه ، ونفسه ، فانشرح لذلك صدره ، وقوى إيمانه ، ونزه ربه عن صفات خلقه ، من الحصر والحلول و ذاق حينئذ شيئاً من أذواق السابقين المقربين [٢] .

أثر صفة السمع :

قال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾[المجادلة : ١] وعن عائشة رضى الله عنها

---

(١) انظر : مفهوم الأسماء والصفات مقال فى مجلة الجامعة الإسلامية العدد (٥٩) : ٧٠ .

(٢) انظر : النصيحة فى صفة الرب جل وعلا للواسطى : ٥٠ .

قالت : (الحمد لله وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبى ﷺ تكلمه وأنا فى ناحية البيت ، ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا . .﴾ [المجادلة : ١] (١) .

أقول : لو أن دارس الأسماء والصفات ومدرسيها تأملوا ما دلت عليه هذه الصفات وأشعر المرء نفسه أنه مراقب فى جميع أحواله، وأن ما ينطق به لسانه يسمعه خالقه من فوق سبع سموات فى حينه، وأنه سيجازيه على ذلك لا نعكس على سلوكه وأخلاقه وأعماله وسيرته فى مجتمعه ، ولظهرت الأخلاق الربانية وأصبح الشخص لله وليا يمشى على وجه الأرض ، ولشعرنا أن الأخلاق الرفيعة ثمرة من ثمرات التوحيد . وبقدر ما يملك العبد من الإيمان والتوحيد ينعكس ذلك ويظهر على أخلاقه .

ولا بد أن نراعى قواعد السلف عند تأملنا وتفكرنا فى أسماء الله وصفاته التى تزيدنا إيمانا بالله العلى العظيم، ويعجبنى فى هذا المقام أن أكتب ما كان يقوله ويكرره شيخى الفاضل عبد المحسن العباد فى دروسه بالمدينة النبوية (المذهب الحق وسط بين الطرفين فى قضية الإثبات ، فلا نفى ولا تأويل ، وفيه التنزية فلا تشبيه ولا تمثيل ، وكل من المشبهة والنفاة جمعوا بين إساءة وإحسان) .

فالمشبهة : أحسنوا إذ أثبتوا فلم ينفوا الصفات ، وأساؤوا إذا شبهوا ومثلوا ، وأهل السنة والجماعة جمعوا بين الحسنيين وسلموا من الإساءتين فالإحسان الذى عند الطرفين عندهم ، وليس عندهم ما عند كل من الإساءة وذلك أنهم أثبتوا ما أثبت فى الكتاب والسنة من الصفات ، ونزهوا الله عن مشابهة خلقه ، وكما قال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] فأول الآية تنزيه وآخرها إثبات ، فمثل هذا المذهب الحق بالنسبة إلى الطرفين المتقابلين كاللبن السائغ للشاربين الذى يخرج من بين فرث ودم (٢) .

---

(١) البخارى مع الفتح ، كتاب التوحيد ، باب وكان الله سميعا بصيرا : ١٣ / ٣٨٤ .

(٢) عشرون حديثا من صحيح مسلم لعبد المحسن العباد : ١٧٧ ، ١٧٨ .

ثانياً: تدبر القرآن على وجه العموم:

فإن المتدبر لا يزال يستفيد من علوم القرآن ومعارفه، ما يزداد به إيماناً، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾. [الأنفال: ٢] وكذلك إذا نظرنا إلى انتظامه، وإحكامه، وأنه يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً، ليس فيه تناقض ولا اختلاف: تيقن أنه تنزيل من حكيم حميد ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾. [فصلت: ٤٢] وأنه لو كان من عند غير الله، لوجد فيه - من التناقض والاختلاف - أمور كثيرة، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾. [النساء: ٨٢] وهذا من أعظم مقويات الإيمان، ويقويه من وجوه كثيرة: فالمؤمن بمجرد ما يتلو آيات الله، ويعرف ما فيها من الأخبار الصادقة، والأحكام الحسنة - يحصل له من أمور الإيمان، خير كبير فكيف إذا أحسن تأمله، وفهم مقاصده وأسراره ؟! ولهذا كان المؤمنون الكمل يقولون: ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾. [آل عمران: ١٩٣].

ثالثاً: معرفة أحاديث النبي ﷺ، وما تدعو إليه من علوم الإيمان وأعماله:

كلها من محصلات الإيمان ومقوياته، فكلما ازداد العبد معرفة بكتاب الله وسنة رسوله، ازداد إيمانه ويقينه، وقد يصل فى علمه وإيمانه إلى مرتبة اليقين، فقد وصف الله الراسخين فى العلم، الذين حصل لهم العلم التام القوى الذى يدفع الشبهات والريب، ويوجب اليقين التام؛ ولهذا كانوا سادة المؤمنين الذين استشهد الله بهم واحتج بهم على غيرهم من المرتابين والجاحدين، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾. [آل عمران: ٧].

فالراسخون زال عنهم الجهل والريب وأنواع الشبهات، وردوا المتشابه من

الآيات إلى المحكم منها، وقالوا: آمنا بالجميع، فكلها من عند الله، وما منه، وما تكلم به كله صدق وحق. وقال تعالى: ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ . [النساء: ١٦٢].

وقال تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . [آل عمران: ١٨] ولعلمهم بالقرآن العلم التام، وإيمانهم الصحيح استشهد بهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . [الروم: ٥٦] وأخبر تعالى في عدة آيات، أن القرآن آيات للمؤمنين وآيات للموقنين؛ لأنه يحصل لهم بتلاوته وتدبره - من العلم واليقين والإيمان - بحسب ما فتح الله عليهم منه، فلا يزالون يزدادون علما وإيماناً ويقيناً (١).

رابعاً: ومن طرق موجبات الإيمان وأسبابه: معرفة النبي ﷺ ومعرفة ما هو عليه من الأخلاق العالية، والأوصاف الكاملة، فإن من عرفه حق المعرفة لم يرتب في صدقه وصدق ما جاء به من الكتاب والسنة والدين الحق كما قال تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ . [المؤمنون: ٦٩].

فمعرفته ﷺ توجب للعبد المبادرة إلى الإيمان بما لم يؤمن به، وزيادة الإيمان بما آمن به. وقال تعالى حاثاً لهم على تدبر أحوال الرسول الداعية للإيمان: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ . [سبأ: ٤٦].

وأقسم تعالى بكمال هذا الرسول وعظمة أخلاقه، وأنه أكمل مخلوق بقوله: ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ . [القلم: ١ - ٤] فهو ﷺ أكبر داع للإيمان في أوصافه الحميدة، وشمائله الجميلة، وأقواله الصادقة النافعة، وأفعاله الرشيدة فهو الإمام الأعظم، والقدوة الأكمل ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ . [الحشر: ٧].

---

(١) انظر: التوضيح والبيان: ٤٢ - ٤٣.

وقد ذكر الله عن أولى الألباب الذين هم خواص الخلق أنهم قالوا: ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ ﴾ وهو هذا الرسول الكريم ﴿ يُنَادِي لِلإِيمَانِ ﴾ بقوله وخلقه وعمله ودينه، وجميع أحواله ﴿ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾ . [آل عمران: ١٩٢] أى إيماناً لا يدخله ريب.

ولما كان هذا الإيمان من أعظم ما يقرب العبد إلى الله، ومن أعظم الوسائل التى يحبها الله - توسلوا بإيمانهم أن يكفر عنهم السيئات وينيلهم المطالب العاليات، فقالوا: ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾ . [آل عمران: ١٩٣].

ولهذا كان الرجل المنصف - الذى ليس له إرادة إلا اتباع الحق مجرد ما يراه ويسمع كلامه - يبادر إلى الإيمان به ﷺ ، ولا يرتاب فى رسالته بل كثير منهم - مجرد ما يرى وجهه الكريم - يعرف أنه ليس بوجه كذاب وقيل لبعضهم: (لم بادرت إلى الإيمان بمحمد قبل أن تعرف رسالته ؟ فقال: ما أمر بشىء، فقال العقل، ليته نهى عنه ولا نهى عن شىء فقال العقل ليته أمر به) (١).

فاستدل هذا العاقل الموفق - بحسن شريعته، وموافقتها للعقول الصحيحة - على رسالته، فبادر إلى الإيمان به (٢) ؛ ولهذا استدل ملك الروم هرقل - لما وصف له ما جاء به الرسول، وما كان يأمر به، وما ينهى عنه - استدل بذلك أنه من أعظم الرسل، واعترف بذلك اعترافاً جلياً ولكن منعته الرئاسة وخشية زوال ملكه من اتباعه، كما منعت كثيراً ممن اتضح لهم أنه رسول الله حقاً، وهذا من أكبر موانع الإيمان فى حق أمثال هؤلاء، وأما أهل البصائر والعقول الصحيحة، فإنهم يرون هذه الموانع والرئاسات والشبهات والشهوات، ولا يرون لها قيمة: حتى يعارض بها الحق الصحيح النافع، المثمر للسعادة عاجلاً وآجلاً. ولهذا السبب الأعظم كان المعتنون بالقرآن حفظاً ومعرفة، والمعتنون بالأحاديث الصحيحة أعظم إيماناً ويقيناً من غيرهم، وأحسن عملا فى الغالب (٣).

(١ ، ٢) المرجع السابق: ٤٩ . (٣) شجرة الإيمان للسعدى: ٤٩ .

خامسا : ومن أسباب الإيمان ودواعيه التي بينها القرآن : التفكر في الكون، في خلق السموات والأرض وما فيهن من المخلوقات المتنوعة، والنظر في نفس الإنسان، وما هو عليه من الصفات المتنوعة قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ . [آل عمران : ١٩٠]

وقال تعالى : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ . [الذاريات : ٢١] .

فإن التأمل والتفكر في الكون والنفس وآيات الله المنظورة داع قوي للإيمان، لما في هذه الموجدات من عظمة الخلق الدالة على قدرة خالقها وعظمته، وما فيها : من الحسن والانتظام، والإحكام الذي يحير الألباب، الدال على سعة علم الله، وشمول حكمته، وما فيها من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، الدالة على سعة رحمة الله، وجوده وبره، وذلك كله يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره، واللهج بذكره، وإخلاص الدين له وهذا هو روح الإيمان وسره (١) .

وإذا تأملنا في مخلوقات الله كلها، نجدها مضطرة ومحتاجة إلى ربها من كل الوجوه، وأنها لا تستغني عنه طرفة عين خصوصاً ما تشاهده في نفسك من أدلة الافتقار وقوة الاضطرار، وذلك يوجد للعبد كمال الخضوع، وكثرة الدعاء والتضرع إلى الله : في جلب ما يحتاجه من منافع دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ويوجب له قوة التوكل على ربه، وكمال الثقة بوعده، وشدة الطمع في بره وإحسانه، وبهذا يتحقق الإيمان، ويقوى التعبد فإن الدعاء مخ العبادة وأصلها (٢) قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ . [فاطر : ١٥] كذلك التفكر في كثرة نعم الله وآلائه العامة والخاصة التي لا يخلو منها مخلوق طرفة عين فإن هذا يدعو إلى الإيمان .

ولهذا دعى الله الرسل والمؤمنين إلى شكره، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ . فالإيمان يدعو إلى الشكر،

(١ ، ٢) التوضيح والبيان : ٥١ .

والشكر ينمو به الإيمان فكل منها ملازم وملزوم للآخر.

سادساً: ومن أسباب دواعى الإيمان التى بينها القرآن: الإكثار من ذكر الله فى كل وقت، ومن الدعاء الذى هو مخ العبادة، فإن الذكر لله يغرس شجرة الإيمان فى القلب ويغذيها وينميها، وكلما ازداد العبد ذكراً لله قوى إيمانه، كما أن الإيمان يدعو إلى كثرة الذكر، فمن أحب الله أكثر من ذكره، ومحبة الله هى: الإيمان، بل هى روحه. قال تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ... ﴾. [الأحزاب: ٤١] ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ... ﴾. [الأحزاب: ٢١].

سابعاً: ومن الأسباب الجالبة للإيمان التى بينها القرآن: السعى والاجتهاد فى تحقيق مقام الإحسان فى عبادة الله والإحسان إلى خلقه قال تعالى: ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ... ﴾. [لقمان: ٢٢] وقال تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣].

فعلى العبد: أن يعبد الله كأنه يشاهده، فإن لم يقوى على هذا استحضر أن الله يشاهده ويراه، فيجتهد فى إكمال العمل وإتقانه ولا يزال يجاهد نفسه ليتحقق بهذا المقام العالى، حتى يقوى إيمانه ويقينه، ويصل فى ذلك إلى حق اليقين وطريق المحسنين، كما جاء فى القرآن بيان صفاتهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾. [الذاريات: ١٥] وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾. [آل عمران: ١٣٤].

وبذلك يتضح لنا صفات المحسنين ويكون الإحسان إلى الخلق بالقول والفعل والمال والجاه، وأنواع المنافع هو من الإيمان، ومن دواعى زيادته، والجزاء من جنس العمل، فكما أحسن إلى عباد الله، وأوصل إليهم من بره ما يقدر عليه، أحسن الله إليه أنواعاً من الإحسان ومن أفضلها: أن يقوى إيمانه ورغبته فى فعل الخير،

والتقرب إلى ربه، وإخلاص العمل له (١).

ثامنا: ومن الأمور التي تقوى الإيمان وتزيده ما ذكره الله تعالى في سورة المؤمنون من قوله: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ إلى قوله: ﴿أولئك هم الوارثون﴾. [المؤمنون: ١ - ١١]

فهذه الصفات الثمان، كل واحدة منها تثمر الإيمان وتنميه، كما أنها من صفات الإيمان وداخلة في تفسيره كما تقدم، فحضور القلب في الصلاة، وكون المصلي يجاهد نفسه على استحضار ما يقوله ويفعله: من القراءة، والذكر، والدعاء فيها، ومن القيام والقعود، والركوع والسجود من أسباب زيادة الإيمان ونموه (٢).

وقد سمى الله تعالى الصلاة إيماناً بقوله: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾. [البقرة: ١٤٣] ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ [العنكبوت: ٤٥] فحشاء ومنكر ينافي الإيمان، كما أنها تحتوى على ذكر الله الذي يغذي الإيمان وينميه، لقوله: ﴿ولذكر الله أكبر﴾. [العنكبوت: ٤٥] والزكاة كذلك تنمي الإيمان وتزيده فرضها ونفلها، وقد بين النبي ﷺ كونها برهان على إيمان صاحبها فهي تغذي الإيمان وتنميه، والإعراض عن اللغو الذي هو كل كلام لا خير فيه، وكل فعل لا خير فيه - بل يقولون الخير ويفعلونه، ويتركون الشر قولاً وفعلاً - لا شك أنه من الإيمان ويزداد به الإيمان ويثمر.

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم، إذا وجدوا غفلة أو تشعث إيمانهم، يقول بعضهم لبعض: «اجلس بنا نؤمن ساعة»، فيذكرون الله، ويذكرون نعمه الدينية والدنيوية، فيتجدد بذلك إيمانهم، وكذلك العفة عن الفواحش خصوصاً فاحشة الزنى، لا ريب أن هذا من أكبر علامات الإيمان ومنمياته.

فالمؤمن لخوفه مقامه بين يدي ربه، ﴿ونهى النفس عن الهوى﴾. [النازعات: ٤٠] إجابة لداعي الإيمان، وتغذية لما معه من الإيمان. ورعاية العهود والأمانات، وحفظها من علامات الإيمان، وإذا أردت أن تعرف إيمان العبد ودينه

(١، ٢) التوضيح والبيان: ٥٤.

فانظر حاله : هل يرعى الأمانات كلها مالية أو قولية، أو أمانات الحقوق ؟ وهل يرعى الحقوق والعهود والعقود التى بينه وبين الله، والتى بينه وبين العباد ؟ إذ لم يكن كذلك نقص من دينه وإيمانه بمقدار ما انتقص من ذلك. وختماً بالمحافظة على الصلوات على حدودها، وحقوقها؛ وأوقاتها ـ لأن المحافظة على ذلك بمنزلة الماء الذى يجرى فى بستان الإيمان فيسقيه وينميه ويؤتى أكله كل حين.

تاسعاً : ومن دواعى زيادة الإيمان وأسبابه : الدعوة إلى الله وإلى دينه والتواصى بالحق والتواصى بالصبر، والدعوة إلى أصل الدين، والدعوة إلى التزام شرائعه بالأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر. وبذلك يكمل العبد بنفسه، ويكمل غيره كما أقسم تعالى بالعصر، أن جنس الإنسان لفى خسر إلا من اتصف بصفات أربع : الإيمان، والعمل الصالح اللذين بهما تكمل النفس، والتواصى بالحق ـ الذى هو العلم النافع والعمل الصالح والدين الحق ، وبالصبر على ذلك كله، يكمل غيره.

وذلك : أن نفس الدعوة إلى الله والنصيحة لعباده، من أكبر مقومات الإيمان وصاحب الدعوة لابد أن يسعى بنصر هذه الدعوة، ويقيم الأدلة والبراهين على تحقيقها، ويأتى الأمور من أبوابها، ويتوصل إلى الأمور من طرقها، وهذه الأمور من طرق الإيمان وأبوابه [١] قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ... ﴾ . [فصلت : ٣٣ ـ ٣٦] ومن حرص على نصح الناس ودعوتهم إلى دين الله لابد أن يجازيه الله ويؤيده بنور منه، وروح وإيمان وقوة توكل، فإن الإيمان وقوة التوكل على الله، يحصل بهما النصر على الأعداء من شياطين الإنس وشياطين الجن [٢] قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ . [النحل : ٩٩] والمتصدى لنصرة الحق، لابد أن يفتح

---

(١) التوضيح والبيان : ٥٨ . (٢) التوضيح والبيان : ٥٨ .

عليه فيه من الفتوحات العلمية والإيمانية بمقدار صدقه وإخلاصه.

عاشراً: ومن أهم مواد الإيمان ومقوماته: توطين النفس على مقاومة ما ينافى الإيمان من شعب الكفر والنفاق، والفسوق والعصيان. فقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى كتابه الأسباب المقوية المنمية للإيمان، ووضحها رسول الله ﷺ، كذلك بين المولى عز وجل الموانع والعوائق وأرشد إلى دفعها، وهى الإقلاع عن المعاصى، والتوبة مما يقع منها، وحفظ الجوارح كلها عن المحرمات، ومقاومة فتن الشبهات القادحة فى علوم الإيمان، المضعفة له، والشهوات المضعفة لإرادات الإيمان، فإن الإرادات التى أصلها الرغبة فى الخير ومحبته والسعى فيه، لا تتم إلا بترك إرادات ما ينافيها من رغبة النفس فى الشر، ومقاومة النفس الأمارة بالسوء. فمتى حفظ العبد من الوقوع فى فتن الشبهات، وفتن الشهوات تم إيمانه وقوى يقينه (١).

فالعبد المؤمن الموفق لا يزال يسعى فى أمرين: أحدهما: تحقيق أصول الإيمان وفروعه والتحقق بها علماً وعملاً وحالاً. والثانى: السعى فى دفع ما ينافيها وينقصها أو ينقصها من الفتن الظاهرة والباطنة، ويداوى ما قصر فيه من الأول، وما تجرأ عليه من الثانى بالتوبة النصوح، وتدارك الأمر قبل فواته (٢) قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾. [الأعراف: ٢٠١] أى مبصرون الخلل الذى وقعوا فيه، والنقص الذى أصابهم من طائف الشيطان، الذى هو أعدى الأعداء للإنسان، فإذا أبصروا تداركوا هذا الخلل بسده، وهذا الفتق برتقه، فردوا إلى حالهم الكاملة، وعاد عدوهم حسيراً ذليلاً، وإخوان الشيطان ﴿ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾. [الأعراف: ٢٩٢]. الشياطين لا تقصر عن إغوائهم وإيقاعهم فى أشراك الهلاك، والمستجيبون لهم لا يقصرون عن طاعة أعدائهم والاستجابة لدعوتهم حتى يقعوا فى الهلاك، ويحق عليهم الخسار وبعد هذا العرض الموجز لمفهوم الإيمان تبين أن ما جاء به القرآن

(١، ٢) المرجع السابق: ٦١.

ووضحه سيد الأنام ﷺ: هو الصراط المستقيم والاستقامة والاعتدال، بعيداً عن ما وقع فيه الملاحدة من الزور والبهتان، ووقع فيه الفلاسفة من تصورات خاطئة مريضة فى أسماء الله وصفاته وأفعاله وذاته.

لقد وقع الناس بين إفراط وتفريط وانكسار وغلو، فأكرم الله البشرية بهذا الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ففى جانب الإيمان بالله تعالى جاء القرآن بالمنهج الوسط الذى تجسدت فيه ملامح الوسطية من حكمة واستقامة واعتدال وعدل وبينية.

وقبل الانتهاء من مبحث الإيمان وأسباب زيادته رأيت من باب الفائدة والحث على استيعاب وفهم هذا الموضوع المهم فى حياة الناس أن أتطرق إلى فوائد الإيمان وثمراته كما جاءت فى القرآن موضحاً الآثار والفوائد والثمرات العاجلة والآجلة فى القلب والبدن، والراحة والحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة، وذكر القرآن الكريم لهذه الفوائد والثمار يرسم لنا الصورة اليانعة الحية فى وسطية القرآن فى قضية الإيمان.

ثالثاً: فوائد الإيمان وثمراته:

إن من حكمة الله الربانية :أن جعل قلوب عباده المؤمنين تحس وتتذوق وتشعر بثمرات الإيمان؛ لتندفع نحو مرضاته، والتوكل عليه سبحانه وتعالى، فإن شجرة الإيمان إذا ثبتت وقويت أصولها وتفرعت فروعها، وزهت أغصانها، وأينعت أفنانها عادت على صاحبها وعلى غيره بكل خير عاجل وآجل فى الدنيا والآخرة، وثمار الإيمان وثمراته وفوائده كثيرة قد بينها الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم فمن أعظم هذه الفوائد والثمار:

أولاً :الاغتباط بولاية الله الخاصة، التى هى أعظم ما تنافس فيه المتنافسون، وتسابق فيه المتسابقون وأعظم ما حصل عليه المؤمنون، قال تعالى: ﴿ ألا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ثم وصفهم بقوله: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾. [يونس: ٦٢ ، ٦٣] فكل مؤمن تقى، فهو لله ولى ولاية خاصة، من ثمراتها ما قاله الله عنهم: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ . [البقرة:٢٥٧]

أى يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات المعاصى إلى نور الطاعة ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة والذكر، وحاصل ذلك أنه يخرجهم من ظلمات الشرور المتنوعة إلى ما يرفعها من أنوار الخير العاجل والآجل. وإنما حازوا هذا العطاء الجزيل، بإيمانهم الصحيح، وتحقيقهم هذا الإيمان بالتقوى، فإن التقوى من تمام الإيمان.

ثانيا: الفوز برضا الله وداركرامته قال تعالى: ﴿ والْمُؤْمنون والْمُؤْمنات بعْضُهمْ أوْلياء بعْض يأْمُرون بالْمعْرُوف وينْهوْن عن الْمُنكر ويُقيمُون الصّلاة ويُؤْتُون الزّكاة ويُطيعُون اللّه ورسُولهُ أُوْلئك سيرْحمُهُمُ اللّهُ إنّ اللّه عزيزٌ حكيمٌ (٧١) وعد اللّهُ الْمُؤْمنين والْمُؤْمنات جنّات تجْري من تحْتها الأنْهارُ خالدين فيها ومساكن طيّبة في جنّات عدْن ورضْوانٌ مّن اللّه أكْبرُ ذلك هو الْفوْزُ الْعظيمُ ﴾. [التوبة: ٧١، ٧٢] فنالوا رضا ربهم ورحمته، والفوز بهذه المساكن الطيبة بإيمانهم الذى كملوا به أنفسهم، وكملوا غيرهم بقيامهم بطاعة الله وطاعة رسوله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فاستولوا على أجل الوسائل، وأفضل الغايات وذلك فضل الله.

ثالثا: ومن ثمرات الإيمان: أن الله يدافع عن المؤمنين جميع المردة، وينجيهم من الشدائد كما قال تعالى: ﴿ إنّ اللّه يُدافعُ عن الّذين آمنُوا ﴾. [الحج: ٣٨] أى يدافع عنهم كل مكروه، يدافع عنهم شر شياطين الإنس وشياطين الجن، ويدافع عنهم الأعداء، ويدافع عنهم المكاره قبل نزولها ويرفعها أو يخففها بعد نزولها، ولما ذكر تعالى ما وقع فيه يونس عليه السلام وأنه: ﴿ فنادى في الظُّلُمات أن لاّ إله إلاّ أنت سُبْحانك إنّي كُنتُ من الظّالمين ﴾. قال ﴿ فاسْتجبْنا لهُ ونجّيْناهُ من الْغمّ وكذلك نُنجي الْمُؤْمنين ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]. إذا وقعوا فى الشدائد، كما أنجينا يونس قال النبى ﷺ: «دعوة أخي يونس ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه كربته لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» وقال تعالى: ﴿ ومن يتّق اللّه يجْعل لّهُ منْ أمْره يُسْرًا ﴾. [الطلاق: ٤].

فالمؤمن المتقى ييسر الله له أمره وييسره لليسرى، ويجنبه العسرى، ويسهل

عليه الصعاب ويجعل له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، وشواهد هذا كثيرة من الكتاب والسنة (١).

رابعاً: ومنها أن الإيمان والعمل الصالح الذى هو فرعه يثمر الحياة الطيبة فى هذه الدار، وفى دار القرار قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . [النحل: ٩٧].

ذلك أن من خصائص الإيمان، أنه يثمر طمأنينة القلب وراحته وقناعته بما رزق الله، وعدم تعلقه بغيره، وهذه هى الحياة الطيبة، فإن أصل القلب الحياة الطيبة راحة القلب وطمأنينته، وعدم تشوشه مما يتشوش منه الفاقد للإيمان الصحيح.

خامساً: ومنها: أن جميع الأعمال والأقوال إنما تصح وتكمل بحسب ما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والاخلاص؛ ولهذا يذكر الله هذا الشرط الذى هو أساس كل عمل، مثل قوله: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ . [الانبياء: ٩٤] أى لا يجحد سعيه ولا يضيع عمله، بل يضاعف بحسب قوة إيمانه وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ . [الإسراء: ١٩] والسعى للآخرة هو العمل بكل ما يقرب إليها، ويدنى منها من الأعمال التى شرعها الله على لسان نبيه محمد ﷺ فإذا تأسست على الإيمان، ونبتت عليه كان السعى مشكوراً مقبولاً مضاعفاً، لا يضيع منه مثقال ذرة. وأما إذا فقد العمل الإيمان، فلو استغرق العامل ليله ونهاره فإنه غير مقبول قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ . الفرقان: ٢٣] وذلك لأنها أسست على غير الإيمان بالله ورسوله الذى روحه الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول. قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ . [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥] فهم لما فقدوا الإيمان، وحل محله الكفر بالله وآياته

---

(١) التوضيح والبيان: ٦٧ .

حبطت أعمالهم، قال تعالى: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ . [الزمر: ٦٥] ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ [الأنعام: ٨٨].

ولهذا كانت الردة عن الإيمان تحبط جميع الأعمال الصالحة، كما أن الدخول فى الإسلام والإيمان يجب ما قبله، من السيئات وإن عظمت، والتوبة من الذنوب المنافية للإيمان، والقادحة فيه والمنفقة له تجب ما قبلها[١].

سادساً: ومن ثمرات الإيمان: أن صاحب الإيمان يهديه الله إلى الصراط المستقيم ويهديه إلى علم الحق، وإلى العمل به، وإلى تلقى المحاب بالشكر، وتلقى المكاره والمصائب بالرضا والصبر قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ . [يونس: ١٠] وقال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ . [التغابن: ١١].

ذكر الشوكانى[٢] رحمه الله فى تفسير هذه الآية: (هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم. ولو لم يكن من ثمرات الإيمان، إلا أنه يسلى صاحبه عن المصائب والمكاره التى كل أحد عرضة لها فى كل وقت، ومصاحبة الإيمان واليقين أعظم مسل عنها، ومهون لها وذلك لقوة إيمانه وقوة توكله، ولقوة رجائه بثواب ربه، وطمعه فى فضله فحلاوة الأجر تخفيف مرارة الصبر، قال تعالى: ﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجَونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ ﴾[٣] [النساء: ١٠٤] .

سابعاً: ومن ثمرات الإيمان ولوازمه وفوائده وخياراته من الأعمال الصالحة ما ذكره الله بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾. [مريم: ٩٦] أى بسبب إيمانهم وأعمال الإيمان يحبهم الله ويجعل لهم المحبة فى قلوب المؤمنين، ومن أحبه الله وأحبه المؤمنون من عباده حصلت له السعادة والفلاح

---

(١) المرجع السابق: ٧٥ .

(٢) هو الإمام محمد بن على الشوكانى ثم الصنعانى القاضى محدث وفقيه وأصولى ومفسر، واسم تفسيره فتح القدير توفى ١٢٥٠ هـ ، انظر مناهج المفسرين: ٥٠ .

(٣) فتح القدير للشوكانى: ٥ / ٢٣١ .

والفوائد الكثيرة من محبة المؤمنين من الثناء والدعاء له حياً وميتاً، والاقتداء به، وحصول الإمامة فى الدين[(١)].

وهذه أيضاً من أجل ثمرات الإيمان: **أن يجعل الله للمؤمنين الذين كملوا إيمانهم بالعلم والعمل لسان صدق ويجعلهم أئمة يهتدون بأمره** كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾. [السجدة: ٢٤] فبالصبر واليقين اللذين هما رأس الإيمان وكماله نالوا الإمامة فى الدين[(٢)].

ثامناً: ومنها قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾. [المجادلة: ١١] فهم أعلى الخلق درجة عند الله وعند عباده فى الدنيا والآخرة، وإنما نالوا هذه الرفعة، بإيمانهم الصحيح وعلمهم ويقينهم، والعلم واليقين من أصول الإيمان.

تاسعاً: ومن ثمرات الإيمان: حصول البشارة بكرامة الله، والأمن التام من جميع الوجوه، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. [البقرة: ٢٢٣] فأطلقها ليعم الخير العاجل والآجل، وقيدها فى مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. [البقرة: ٢٥] فلهم البشارة المطلقة والمقيدة، ولهم الأمن المطلق فى مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾. [الأنعام: ٨٢] ولهم الأمن المقيد فى مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. [الأنعام: ٤٨] فنفى عنهم الخوف لما يستقبلونه، والحزن مما مضى عليهم، وبذلك يتم لهم الأمن.

فالمؤمن له الأمن التام فى الدنيا والآخرة: أمن من سخط الله وعقابه، وأمن من جميع المكاره والشرور وله البشارة الكاملة بكل خير، كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾. [يونس: ٦٤].

ويوضح هذه البشارة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ

---

(١) التوضيح والبيان: ٧٦

(٢) التوضيح والبيان: ٧٦

عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون (٣٠) نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون (٣١) نزلا من غفور رحيم ﴾ . [فصلت : ٣٠ - ٣٢] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾ . [الحديد :٢٨] فرتب على الإيمان حصول الثواب المضاعف، وكمال النور الذى يمشى به العبد فى حياته، ويمشى به يوم القيامة : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾[الحديد : ١٢] .

فالمؤمن من يمشى فى الدنيا بنور علمه وإيمانه، وإذا طفئت الأنوار يوم القيامة مشى بنوره على الصراط حتى يجوز به إلى دار الكرامة والنعيم، وكذلك رتب المغفرة على الإيمان، ومن غفرت سيئاته سلم من العقاب، ونال أعظم الثواب(١) .

عاشراً : ومن ثمرات الإيمان : حصول الفلاح الذى هو إدراك غاية الغايات، فإنه إدراك كل مطلوب، والسلامة من كل مرهوب والهدى الذى هو أشرف الوسائل، كما قال تعالى بعد ذكره المؤمنين بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل على من قبله، والإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة اللتين هما من أعظم آثار الإيمان قال تعالى : ﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾. [البقرة : ٥] .

فهذا هو الهدى التام والفلاح الكامل، فلا سبيل إلى الهدى والفلاح اللذين لا صلاح ولا سعادة إلا بهما إلا بالإيمان التام بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله فالهدى أجل الوسائل، والفلاح أكمل الغايات (٢) .

الحادى عشر : ومن ثمرات الإيمان : الانتفاع بالمواعظ والتذكير بالآيات قال تعالى : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ . [الذاريات : ٥٥] ﴿ إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾ . [الحجر : ٧٧] .

وهذا لأن الإيمان يحمل صاحبه على التزام الحق واتباعه، علماً وعملاً وكذلك

(١ ، ٢) المرجع السابق : ٧٩ ، ٨٠ .

معه الآلة العظيمة ،والاستعداد لتلقى المواعظ النافعة والآيات الدالة على الحق، وليس عنده مانع يمنعه من قبول الحق، ولا من العمل به.

وأيضاً: فالإيمان يوجب سلامة الفطرة، وحسن القصد، ومن كان كذلك انتفع بالآيات، ومن لم يكن كذلك فلا يستغرب عدم قبوله للحق واتباعه له، ولهذا يذكر الله ـ فى سياق تمنع الكافرين من تصديق الرسول ﷺ وقبوله الحق الذى جاء به ـ السبب الذى أوجب لهم ذلك وهو الكفر الذى فى قلوبهم، يعنى لأن الحق واضح وآياته بينة واضحة والكفر أعظم مانع يمنع من اتباعه، أى فلا تستغربوا هذه الحالة، فإنها لم تزل دأب كل كافر (١).

الثانى عشر: ومنها أن الإيمان يقطع الشكوك التى تعرض لكثير من الناس فتضر بدينهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا...﴾ [الحجرات: ١٥] أى دفع الإيمان الصحيح الذى معه الريب والشك الموجود، وإزالته بالكلية، وقاوم الشكوك التى تلقيها شياطين الإنس والجن، والنفوس الأمارة بالسوء فليس لهذه العلل المهلكة دواء إلا تحقيق الإيمان. ولهذا ثبت فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ: «**لا يزال الناس يسألون حتى يقال: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله ؟ فمن وجد ذلك فليقل: آمنت بالله**» (٢) وفى رواية: «**فليستعذ بالله ولينته**» (٣).

وبهذا بين ﷺ الدواء النافع لهذا الداء المهلك وهو ثلاثة أشياء: الانتهاء عن هذه الوساوس الشيطانية، والاستعاذة من شر من ألقاها وشبه بها ليضل بها العباد، والاعتصام بعصمة الإيمان الصحيح الذى من اعتصم به كان من الآمنين. وذلك لأن الباطل يتضح بطلانه بأمور كثيرة أعظمها: العلم أنه منافى للحق، وكل ما نقض الحق فهو باطل﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ ﴾ . [يونس: ٣٢].

الثالث عشر: ومنها: أن الإيمان ملجأ المؤمنين فى كل ما يلم بهم، من سرور وحزن وخوف وأمن، وطاعة ومعصية، وغير ذلك من الأمور التى لابد لكل أحد منها، فيلجؤون إلى الإيمان عند الخوف فيطمئنون إليه ويزيدهم إيماناً

---

(١) انظر: التوضيح والبيان: ٨١.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة فى الإيمان: ١/ ١١٩.

(٣) المرجع السابق: ١/ ١٢٠.

وثباتاً، وقوة وشجاعة ويضمحل الخوف الذى أصابهم كما قال تعالى عن خيار الخلق: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

لقد اضمحل الخوف من قلوب هؤلاء الأخيار، وخلفه قوة الإيمان وحلاوته وقوة التوكل على الله، والثقة بوعده، ويلجؤون إلى الإيمان عند الطاعة والتوفيق للأعمال الصالحة، فيعترفون بنعمة الله عليهم بها، وأن نعمته عليهم فيها أعظم من نعم العافية والرزق، وكذلك يحرصون على تكميلها، وعمل كل سبب لقبولها وعدم ردها أو نقصها، ويسألون الذى تفضل عليهم بالتوفيق لها، أن يتم عليهم نعمته بقبولها، والذى تفضل عليهم بحصول أصلها، أن يتم لهم منها ما انتقصوه منها: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ . [المؤمنون: ٦١] ويلجؤون إلى الإيمان إذا ابتلوا بشيء من المعاصى بالمبادرة إلى التوبة منها، وعمل ما يقدرون عليه من الحسنات لجبر نقصها قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ . [الأعراف: ٢٠١].

فالمؤمنون فى جميع تقلباتهم وتصرفاتهم ملجؤهم إلى الإيمان، ومفزعهم إلى تحقيقه ودفع ما ينافيه ويضاده، وذلك من فضل الله عليهم ومنه [١]، وخوفا من الإطالة نقتصر على هذه الثمرات العظيمة التى بينها المولى عز وجل وبذلك نستيقن أن كتاب الله جاء تبياناً لكل شيء، وعرض قضية الإيمان من جوانبها المتعددة النافعة للناس، وبين وسائل زيادة الإيمان ورغبنا فيه، بذكر فوائده وثماره بحكمة بالغة تليق بالحكيم العليم جل وعلا.

وبين المولى عز وجل فى كتابه حقيقة الإيمان بأنه: اعتقاد بالجنان، ونطق باللسان، وعمل بالأركان ووضعنا على الصراط المستقيم وسلمت عقول المسلمين وقلوبهم من أمراض التعطيل والتشبيه، والافراط والتفريط، ووقع أهل البدع فى الانحراف عن جادة الصواب، وطريق أهل الاستقامة؛ لأنهم ابتعدوا عن كتاب الله وسنة رسوله وفهم الصحابة والتابعين لهم بإحسان من علماء وفقهاء ومحدثين.

---

(١) التوضيح والبيان: ٨٥